2

مدينة النحاس

حمودة الشريف كريم

سلسلة المطالعة المفيدة



دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس -

سلسلة المطالعة المفيدة

مدينة النّحاس

النّص : حمّودة الشريف كريم
الرّسوم : رضوان الرياحي

دار اليمامة للنشر والتوزيع

وَجدْتُ نَفسي أَلبسُ لباسًا أَبيضَ، أَمشي في تُؤدة وَاطْمئنان، أَتأمَّلُ صَفحةَ الطَّبيعة المشَكَّلة الأَلوَان : وُرودٌ قَد احْمرَّت خَجلاً، وتَضوَّعتْ رَائحتُها في الأَرجَاء، فَإذَا الحديقةُ عطرٌ وجَداولَ تَنسَاب هَادئةً، تُعطي الحيَاةَ والنُّموَّ دُونَ أنْ تَطلُب جَزاء، وأَشجَارٌ تَهدَّلتْ أَغصَانها منْ ثقل الثِّمار، وطُيورٌ في نَشوَة عَارمة، عندَما أَقتَربُ منهَا تَطيرُ زَرافَات تَغيبُ في الأَعالي ثمَّ ما تَلبثُ أنْ تَعودَ لتجثم فَوق شَجرة أُخرَى، وفَراشَاتٌ مُنتشرةٌ هُنا وهُناكَ تَزيدُ في زَخرَفة الطَّبيعَة، ونَحلٌ قَد وَجدَ لَذّةً وحَياةً في الأَزهَار، وحَمامٌ أَبيض يَسيرُ في الممرَّات أَرمي لهُ قطعَ الخُبز فَيتقَدّمُ منّي، ويَقفز أَمامي وفَوقَ كَتفي فَرحًا جَذلاَن، فالطَّبيعةُ في أَزهَى حُللهَا وكَأنَّها زَربيَّةٌ قَيروَانيَّة مُحكَمةُ الصُّنع يُقدِّمهَا لي الرَّبيعُ هَديَّةً لأَتمتَّع بهَا، تمنَّيتُ لوْ أَقضي العُمرَ كُلّهُ في هَذا الجوِّ الرَّائق الجميل.

لم تَدمْ سَعادَتي إلاَّ لَحظات خلتُها حُلمًا، إذْ تَغيَّرتْ بسرْعة مُدهشة، وإذَا تلكَ الطَّبيعةُ السَّاحرةُ الأَخَّاذةُ تُصبح

غابةَ شَوك واكْفهرَّ وَجهُ السَّماء، واخْتفت الشَّمسُ وَراءَ السُّحب الدَّاكنة وغَاب الجمَالُ وأَضحيْتُ كَأنّي في لَيلَة منْ لَيالي الشِّتاء، واشْتدَّ نُزولُ الأَمطَارِ مَصحُوبًا بالزَّوابعِ والصَّواعق الرَّعديّة وشَعرْتُ بانْقباضِ نَفسي يَعصرُ قَلبي، فَاكتَأبْتُ وأَظلَمت الدُّنيا في عَيني فَبكَيتُ، ورَفعْتُ يَدي إلى السَّماءِ ولَكنْ لا مُجيبَ، وطَلبتُ مَلجأً فَلمْ أَجدْهُ، أَمطارٌ غَزيرَةٌ منْ فَوق، ومياهٌ تَتدفَّقُ منْ تَحت كَأنَّها الأَنْهارُ فَكيفَ لي أنْ أَنامَ...؟ وكَانتْ منْ حين لآخرَ تَتعالَى أَصواتُ الحيَوانَات الوَحشيَّة يُردِّدهَا صَدى الغَابة فَتهتزُّ نَفسي وَحشَةً وفَزعًا، وكَان عُواء الذِّئاب يَقترب منِّي شيئًا فشيئًا، وضَاقتْ نَفسِي، ولَكنْ أينَ المفرُّ؟، وسُرعانَ ما تَسلَّقتُ شَجرةً ورَأيتُ الذِّئابَ تجَتمعِ تحَتهَا. وطَفقَتْ تَتشمَّمهَا فَازدَاد وَجلِي وقُلتُ :

- إن اكْتشَفتْني فَستَكونُ آخرَ لَيلة في حَياتي. بَقيتُ اللَّيلَ كُلّه فَوقَ الشَّجرَة وأَنا أَرتَعدُ منَ الخَوْف، وفي الصَّباحِ كُنتُ مُثقلاً بِالأَحزَان، تَعبًا، مَهمُومًا، مُشوَّش الخاطرِ وقُلتُ في نَفسِي :

- إذَا أَنا بَقيتُ عَلى هَذه الحال، لا شكَّ أَنّي هَالكٌ.

طَفقْتُ أَمشِي عَلى غَير هُدى، والأَشوَاكُ كالإبرِ في قَدمِي، والتَّعبُ يَنهشُ جسمِي، وفَجأَةً الْتقَيتُ بقرد عَجوزٍ انْزعَجتُ منْ مَنظره وتَشاءَمتُ منهُ، وَقفْتُ أَنظرُ إليه أَتأَمَّل مَلامحهُ والخوَاطرُ تمرُّ سراعًا في بَالي. وأَخيرًا قَرّرتُ أنْ أُغيِّر اتِّجاهِي، ولَكنَّه أَشارَ إليَّ إشَارات وِدّ وعَطف وأَقبَلَ نَحوِي باشًّا، ضَاحكًا، وسُرعانَ ما أَنستُ به وانْتعَشتْ رُوحِي بوجُودهِ، وكَان يَتمسَّح بي ويُطلقُ أَصواتًا خَافتةً فَهمتُ منها أَنَّه يَستفسرُني عنْ وُجودي هُنا وعَمّن رَماني في هَذهِ المجاهل، ولَكنْ كَيفَ لي أنْ أُصورِّ لَه ما في نَفسِي... واكْتفَيتُ بدمعَات انْسابَت فَوقَ خدِّي، فاحْتضَنني وبَدأَ يُطمْئنُني ويُشارِكني أَحزَاني، وأَطلَق صَرخةً اقْشعرَّ لها بَدني تَردَّد صَداهَا في الغَابِ. وبَعدَ هُنيْهة أَقْبلَت مجَموعَةٌ منْ إشارَات مخُتلفة فَتقدَّم البَعضُ في سلك مُنتظم ومَشى الآخَرونَ خَلفَنا وكَأنَّما هُم في استْعرَاضٍ، وسرِنا في طُرقٍ

ضَيّقة مُلتوية نَنزلُ تَارةً ونَصعَدُ أُخرَى، نَستَقبلُ الشَّمسَ حينا ونُوليهَا ظَهرَنا حينًا آخر.

طَال بنا السَّير وأَنهكَت قوايَ، واشْتدَّ تَعبي. ولمَّا رَأى مَلكُ القُرود مَا بي، كَلّفَ قِردَينِ عَبلاَويْنِ تناوَبَا حَملي، ودَخلْنا نَفقًا مُظلما، سرنَا فيه سَاعات مُضنيةً ومَا إنْ تجَاوَزنَاهُ حتىَّ كُنّا أَمامَ كَهف تحَرُسهُ قُرودٌ شدادٌ، كَانَ مُظلمًا، كَثيرَ التَّعاريج، ما إن تَدخُل حتىَّ تَستَقبلُك رَائحةٌ نَديَّة، وفي صَدره قَاعةٌ فَسيحةٌ فيها جُلودٌ عُلّقتْ في عِيدانٍ خَشبيَّة ومَقاعدُ حَجريَّة كَأنهَّا الكَراسِي.

تَوسَّط الملك القاعة، واصْطفَّ الباقُونَ أَمامَه وأَشارَ إليهِم فَخرَجوا، أمَّا أنَا فَأحْسسْتُ بدفْءٍ يَسرِي في عُروقِي وَراحة تُداخل نَفسِي فَغرِقتُ في نَومٍ عَميق، ورَأيتُ في المنامِ أَسدًا قَويًّا يُداهمني فَنهَضتُ مَذعُورًا، وتَقدَّم منيِّ مَلكُ القُرودِ ووَضعَ يَدهُ عَلى رَأسِي ثمَّ كَلّف بي قردًا فَدهَنني بمرْهمٍ أَزالَ عنيِّ التَّعبَ والإرْهاقَ وقَدّم لي الجَوزَ الهِنديّ والتُّفّاحَ والموزَ.

بَقيتُ مُدّةً عندَ القُرودِ وأنَا فَرِحٌ بتلكَ الحياة، نَشوَانُ، ولَكنَّني أَحسَستُ بدافِعٍ للرَّحيلِ لأَقصد غايَتي، فَاستَسمَحتُ مَلكَهم في السَّفرِ، فَلمْ يَسمَح لي، وكَلّف قِردَينِ بمُراقَبتي، ومُنذُ ذَلكَ الحينِ تَغيَّرتْ حَياتي وشَعرْتُ بالضِّيقِ والقَلقِ، وذَات لَيلة جفَا الكَرى عَيني فَبقيتُ سَاهرًا مُسهدًا، ورَأيتُ نُورًا يَدخُلُ منْ ثقْبة منْ ثُقب باب الكَهف فَتقدَّمتُ ورَأيتُ يا لَهوْل ما رَأيتُ...! رَأيتُهم يُوقدُون النَّار، ويَتحلّقونَ حَول تمثال خَشبيٍّ، والملكُ يُصلِّي بهم وهُم يَتضرَّعونَ لإلهِهمْ، ثُمَّ أَتَوْا بإنسَان قد اكْتنزَ شَحمًا وعَلى عَينَيه عصابَةٌ وأَجلَسوهُ عَلى رُكبَتيه وذَبحُوهُ قُربَانًا، تَثبَّت منَ الأَمرِ ودَاخلَ نَفسِي الهَلَعُ فَبكَيتُ وعَرفتُ لماذَا لم يَسمَحوا لي بالذَّهاب.

مُنذُ ذَلكَ الحينِ، قَرّرتُ الهرُوبَ، وطَفقتُ أُصمِّم خطَّةً، ولَكنْ كَيفَ لي أنْ أَهربَ، وهُم يُراقبونَني مُراقبَةً شَديدَة...؟ فهُم قدْ غَنمُوا غَنمًا عَظيمًا عندمَا وَقعتُ بَين أَيديهِم. كَيفَ أَستطيعُ الإفلاتَ منْ أَيديهِمْ، وهُم يَعرفُونَ

مَجاهِل الغَابة وطُرقهَا...؟ ضَيّقوا عليَّ الخناقَ، وأَضحُوا لا يَترُكونَني أَخرُج منَ الكَهف. كَثيرٌ منَ التَّساؤُلات دَارتْ بفكْري وأنَا أُقلِّبُ الأَمرَ عَلى جميعِ وُجوهه عَلّني أَجدُ حيلَةً تُمكِّنُني منَ النَّجاة بنفسي.

ذاتَ لَيلة، أَقامُوا حَفلاً سَاهرًا وطَفقُوا يَرقُصونَ ويَشرَبونَ مَشرُوبًا غَريبًا قد اسْتخْرجُوهُ منَ الحشَائش ونَاولُوني عدَّة أَقداحٍ وكُنتُ أُفرِغُها وَرائي وأُوهِمهُم أنيِّ أَشرَب. ضَحكُوا كَثيرًا ولَعبُوا كثيرا، ورَقصُوا وتَخدَّروا بذلك المشْروبِ فَنامُوا مُنهكينَ. تَناوَمتُ أوَّل الأَمرِ ثمَّ نَهضتُ أَمشي عَلى أَطرافِ الأَصابعِ، وتَوالتْ دَقّاتُ قَلبي وكَتمتُ أَنفَاسي، وعندَما أَسمعُ حَركَةً أَلتَصقُ بجانبِ الكَهفِ وأَختَبئُ في زَاويةٍ منْ زَواياهُ خُصوصًا وقدْ أَصبحْتُ عَارفًا بجميعِ أَركانه. عندمَا وَصلْتُ البابَ ازْدادَت دَقّاتُ قَلبي وتَوالىَ وَجيبُها وخُيّل إليَّ أنيِّ أَسمعُها تُحدث صَوتًا قَويًّا وأَنَّهم لَحقُوا بي، تَمهّلتُ قَليلاً ووَضعتُ يَدي وبَقيتُ أُراقِب

حَركةَ الحرَّاس، انحَنيتُ وتَقدَّمتُ ببطءٍ وخَرجتُ أَحبُو حتىَّ جَانبتُ الكَهفَ ثمَّ انْطلَقتُ.

بَقيتُ أيَّاما وأنَا أجرِي، وقَد أَصابَني الجُهدُ والإعياءُ، ولَكنَّ الخوفَ هُو الَّذي كَان يَدفَعني إلىَ الأَمامِ غَيرَ مُبالٍ بما أُلاقيه منَ المصَاعب، وذَات يومٍ سَمعتُ ضَجيجًا وصياحًا يَتعالىَ وسَنابكَ خَيلٍ تَدكُّ الأَرضَ، فَصعدْتُ إلى شَجرة فإذَا بي أَرى القُرودَ يَركَبونَ جيادًا وبأيْديهم السِّهامُ يَحثُّونَ خُيولَهم ليدرِكوني، واجْتازُوني حتىَّ مَهبطِ الوَادي وبَقوا يَدورُونَ في نَواحي الغَابة، يُفتِّشونَ عنيِّ، أمَّا أنَا فَلم أَجدْ ما أَفعَلهُ، وأَيقَنتُ أنَّهم سَيمسكونَني، كَانوا يُفتِّشونَ الغابَة شَجرةً شَجرةً ويَدخُلونَ المغاوِرَ ويُراقبونَ حَركةَ ماءِ الوَادي عَلِّي أَكونُ مُختبئا فيه. اقتربَ منيِّ قردٌ وطَفقَ يَنظُر إلى الشَّجرة وكدتُ أَرتَمي عَليه وقُلتُ : أَفتَكُّ منهُ سلاحَه وأَقتُله وأُحارِبهمْ وبذلِك يَكونُ لي شَرفُ الدِّفاعِ عنْ نَفسي، ولَكنيِّ سُرعانَ ما عَدلتُ عنْ هَذهِ الفِكرةِ. تَأمَّل القِردُ

الشَّجرةَ ثمَّ ذَهبَ وقُلتُ في نَفسِي : عَليَّ أنْ أَنزِل فَلعلَّهُ رَآني وذَهبَ ليُخبر الآخَرينَ.

وفي المساءِ رَأيتُهمْ يُوقدونَ النَّار ليشْوُوا أَرانِبَ اصْطادُوها، غَافلتُهُم، وارْتميْتُ فَوقَ أسْرعِ جَواد واتَّجهتُ نحوَ ضفَّةِ النَّهرِ الأُخرَى، فَصاحُوا صَيحةً وَاحدةً وامْتطُوا جيادَهم ولحِقُوا بي وهُم يَرشقُونَني بالسِّهامِ، ولَكنِّي كُنتُ قد ابْتعدْتُ عَنهُم وغبتُ في الغَاب.

بَقيتُ أَسيرًا مُدّة أُسبوعٍ، وتَعبَ الحصانُ المسْكينُ، واشْتدَّ هُزالُه وأَضحتْ صحّتهُ في خَطرٍ، ولم يَعد يَقدرُ علَى المشْي، وسَاءتْ حَالتُه كَثيرًا وبَرزتْ عظامُه، وسَكبَ دُموعًا يَشكُو بها آلامَه، تَألَّمتُ كَثيرًا وبَكيتُ : فَهوَ الَّذي أَراحَني منَ التَّعبِ وآنسني مُدّةً ولَولاهُ لَوقَعتُ في قَبضَة القُرود، وحَمحَم المسْكينُ خَافتًا ثمَّ لَفظَ أَنفاسَهُ. ما أَعظَم مُصابِي! ...حَفرتُ لهُ حُفرةً عَميقةً ووَاريْتهُ، ونَدبتُه، ثمَّ تَحامَلتُ عَلى نَفسي ووَاصلتُ سيْري، كَابدْتُ المشاقَّ وذُقتُ أَلوَانا



منَ العَذاب، ولكنَّ تَحقيقَ الهدف هُو الَّذي كَان يَبعثُ في نَفسِي بَصيصًا منْ نورِ الأَملِ فيُخفِّف عنيِّ المصابَ.

وَجدتُ شَيخًا تحتَ شَجرةٍ يَأتزرُ جلدَ أَسد، والوَقارُ بادٍ عَليه، حَيّيتهُ فَردَّ عليَّ التَّحيَّة وأَشارَ عليَّ بِالجلُوسِ.

قَال :" مَا بكَ يا بُنيّ...؟

قُلتُ :" لي غَاية أُريدُ تَحقيقهَا.

قَال :" ما هِي...؟

قُلت :" زِيارةُ مَدينة النُّحاسِ.

قَال :" أنَا شَيخٌ طَاعنٌ في السِّنّ ولا أَستَطيعُ أنْ أُوصلِكَ إِليهَا ولَكنيِّ سَأدلُّك عَلى الطَّريقِ.

قُلت : أَقرِيبةٌ هِي...؟

قَال : لا تَخف سَأعرِّفكَ مَسالكهَا.

قُلت :" شُكرًا لكَ يا سيِّدي عَلى صَنيعك.

قَال :" أنَا مُقعَد فَهل لكَ أنْ تَحملِني إِلى قَصرِي هُناكَ ؟

قُلت :" لَكَ ما تُريدُ.

قَال :" لنْ أَنسَى لكَ مَعرُوفكَ يا بُنيّ.

حملتُه عَلى ظَهري، ولم أَسِر كَثيرًا حتَّ كَان المترلُ أَمامَنا وَسطَ الغابَة. أَنزلْتُه وإذَا صُورةُ ذَلك الشَّيخ تَتبدَّل إلى صُورة مُنكرة فَعرفْتُ أَنَّه الغُول، وقَال لي :

– الآنَ وَقعتَ في قَبضتي.

ودَفعَني إلى حَظيرة مَلأَى بالنَّاس وكَأَنَّهم قَطيعٌ منَ الغَنمِ يَحرسُهمْ حُرّاسٌ غِلاظٌ شِدادٌ وبِأيْديهِم حِرابٌ طَويلةٌ وسُيوفٌ حَادّةٌ.

وفي اللَّيلِ، جاءَ الغُول وبَدأ يَجسُّ، وَوجدَ شَخصًا سمينًا فَأخَذهُ وأَطاحَ بِرأسِه وشَواهُ وأَكلَهُ فاسْتعظَمتُ الأَمرَ وقُلتُ :

– ما أَتخلَّصُ منْ شرٍّ إلاَّ لأَقعَ في شرٍّ أَعظمَ منهُ.

وقدَّمَ الطَّعامَ للنَّاس فَأقْبلُوا عَليه بشرَاهة. أَمَّا أنَا، فَلم آكُل. وطَفقُوا يُطلقونَ صَيحات كَأَنَّها خُوارُ الثِّيران. انقطعْتُ عنِ الأَكلِ مُدّةً حتَّ أَضرَّ بيَ الهُزالُ وأَخرَجُوني ووَضعُوني في بَيتٍ مُنعزِل، وأَصرَرتُ عَلى عَدمِ الأَكلِ، لأنَّ كلَّ منْ يَأكُل

يَفقد عَقلَه ويُصبِح كَالحيَوانِ، وتَوعَّدني الغُولُ بِالقتْلِ إنْ أنَا لم أَمتَثِل لأَوامِرِه.

قُلتُ في نَفسِي : قِيمةُ الشَّخصِ لاَ تَظهَرُ إلاَّ في مَقدرَته عَلى الخُروجِ منَ المآزِق، أمَّا أنْ يَبقى مَكتُوفَ الأَيدي أَمامَ المشَاكل فَالحيوَانُ أَجلّ منهُ قَدرًا ومَكانةً.

كُنتُ أَتحيَّن الفُرصَ للهُروبِ، وفكَّرتُ في عِدّة طُرقٍ أَستَطيعُ بها تَخليصَ نَفسي والنَّجاةَ بها، وقُلتُ :

– أنَا لا أَستَطيعُ أنْ أُجابه الغُولَ بالقُوّةِ، فَهو أَقوَى مِنيِّ وعَليَّ أنْ أُفكِّر في حِيلةٍ يَكونُ بها نَجاحِي.

وصَنعتُ ما يُشبه الحربَةَ وجَعلتُها حَادَّةً وتَحيَّنتُ فُرصَةَ نَومِ حَارسِي، فَأَغمدْتها في صَدرِه، فَخرَّ صَريعًا، وصَاح صَيحةً مُدوِّيةً، وقَفزْتُ إلى شَجرةٍ كَانتْ وَراءَ سجني وأَقبَل الحرَّاسُ ومَعهُم الغُولُ، ورَأيتُهمْ يجَرونَ في جمَيعِ النَّواحِي يُفتِّشونَ عنيِّ. ولمَّا لم يَجدُوني، قَال لَهمُ الغُولُ :

– لنْ يَستَطيعَ الإفلاتَ منْ قَبضَتي، سَآتي بِه غَدًا.

وعندمَا تَأكَّدتُ منْ رُجوعهم تَسلَّلتُ منَ الشَّجرة وفَرائصي تَرتَعدُ فَلعلَّ الغُولَ مُتربِّصٌ بي، وقَاسيْتُ أيَّامًا ذُقتُ فيها الأَهوَالَ، وكانَ اليَأسُ يُداخلُني منْ حينٍ لآخرَ، ولكنِّي أَتشجَّعُ وأَتصبَّرُ وأَقولُ :

– لاَ قيمةَ للإنْسان إذَا لم يُحقِّق هَدفَهُ.

بَقيتُ أَسيرُ أيَّامًا تَارةً أَنامُ فَوق الأَشجَار وأُخرَى أَحتَمي بالصُّخورِ، ومَشاعرُ الأَلمِ تَتنازَعُني والهمُّ يَضغَطُ عَلى قَلبي فَأرْفعُ يَدي إلى السَّماءِ مُستَنجدًا، وذَات صَباحٍ، أَشرفْتُ عَلى مَدينة خُيِّل إليَّ أنَّها مَدينةُ النُّحاسِ، دَخلتُها وأنَا أُحسُّ بمَشاعرِ الفَرحِ لأنِّي حقَّقتُ أُمنيتي، وما إنْ تَجاوزْتُ البابَ حتَّ مَلكتْني الدَّهشةُ وسَيطرَ عليَّ الاستغرابُ، فَأهْلُها غريبي الأَشكالِ، أُنوفٌ طَويلَةٌ جدًّا مُعقَّفَةٌ ذاتُ مَنخَر واحد، وفي كلِّ وَجه عينٌ جَاحظَةٌ تَدعُو إلى الاشْمئزازِ والتَّقزُّزِ، والبُطونُ مُنداحَةٌ بشكْلٍ غَريب، وتَجمَّع حَولي خَلقٌ كَثيرٌ يُشيرُونَ إليَّ وكأَنَّهم يَستَغْربُونَ

خَلقِي ، وحِينَ أَتقدَّمُ مِنهُم لأَسأَل أَحدَهم يَهرُبونَ منيِّ وقُلتُ في نَفسي :

– ما أَغرَب الحياةَ، أَهؤُلاءِ قَومُ صُمٌّ...؟

اسْتندْتُ إلى السُّورِ ونِمتُ وأَنَا مُقرٌّ العَزمَ علَى الرَّحيلِ عِندَ الفَجرِ، وعِند العَشاءِ، تَقدَّم مِنيِّ شُرطيٌّ وقالَ لي:

– حَاكمُ البلادِ يَدعُوكَ.

فَرِحتُ وقُلتُ :

– سَيُكافئني عَلى مُغامَراتي.

دَخلْتُ القصرَ فإذَا كُلّه حِجارةٌ كَريمةٌ، مَفرُوشٌ بِالبلَّورِ المطعَّمِ بِالمرَجانِ، وحِيطانُه منَ الذَّهبِ والزُّمرُّدِ والماسِ، وتَقدَّمتُ منَ الملِك فإذَا هُو ضَخمُ الجثَّةِ كَالثَّورِ وسَجدتُ أَمامَه وقُلتُ :

– أَمرُ مَولاَي.

قَال : لِمَ قَدِمْتَ إلى هُنا...؟



قُلتُ : أنَا أُحبُّ المغامَراتِ وقدْ سَمعتُ بخبرِ مَدينَةِ النُّحاسِ فَأردْتُ اسْتكْشافَها.

تَطايَرَ الشَّررُ منْ عَينَيهِ وقَال :

– أَنتَ جَاسوسٌ.

قُلتُ : أنَا يا مَولايَ صبيٌّ شَغوفٌ بِاكْتِشافِ المجهُولِ.

صَاحَ :

– احمِلُوهُ وضَعوهُ في السِّجنِ.

أَدخَلونِي بَيتًا ضَيّقا وأَوثَقوا قُيودِي وكَلَّفُوا شَيخًا بِحِراسَتِي، قُلتُ للشَّيخِ :

– ألاَ تَرحمُ طُفولَتِي...؟ أَليسَ لَك أَبْناءٌ صِغارٌ مِثلِي...؟

قَال : أنَا أُبارِكُ جُرأَتَكَ، وكُلّ منْ يَهوَى المغامَراتِ عَليْهِ أنْ يَتحمَّلَ المتَاعِبَ.

طَال بِيَ السِّجنُ واسْتأنَستُ بالشَّيخِ وانْعقدَتْ أُلفةٌ بَينَنا وأَصبحَ يَعطفُ عليَّ وحدَّثني عنْ كَثيرٍ منْ تَقالِيدِ البِلادِ وعَاداتِها، وقُلتُ لهُ :

- لماذَا خلقتُكم هَكذَا...؟

قال : هذَا سرٌّ ومَن يُذيعُه يَكنْ جَزاؤُه الشَّنقُ وَسطَ المدينَة. حَاولْتُ أنْ أَعرفَ، ولكنَّ الشَّيخَ أَصرَّ عَلى الكتمان.

قُلتُ : ومتَى سيُخرِجونَني منْ هذَا السِّجنِ...؟

قَال : في يَومٍ منْ أَيَّام السَّنةِ لاَ يَعرفُه إلاَّ الملِك وحَاشيتُه.

قُلت : لِمَ لا تُحادثُني إلاَّ باللَّيلِ...؟

قَال : تلكَ عَادتُنا، النَّهارُ عَملٌ وصَمتٌ واللَّيلُ رَاحةٌ وكَلامٌ.

أَخرَجوني منَ السِّجنِ ومَثُلتُ أَمامَ الملِك، فَقالَ لي :

- بما أنَّك تُحبُّ المغامَرات، فَقد اختَرْناكَ لتصعدَ الجبلَ وتَبقَى فِيه يَومًا، ثمَّ نُنزِلُك. كُنتُ معَ عَشرةِ رِجالٍ

يَركَبونَ بغالاً صَفراءَ وعَليهَا صَناديقُ حَديديَّة، واتَّجهنَا نحوَ الشَّمال، كَانت البغالُ تَسيرُ بسرعة عَجيبة، ورَغمَ ذَلكَ فَالرِّجالُ يَحثُّونَهَا عَلى المزيد. وعندَ الفَجرِ، كُنّا في وادٍ عَميقٍ في سَفحِ الجبلِ، فَكُّوا وِثاقِي وَوضَعوني في جلدِ كَبشٍ وقَالوا لي :

- سَيأْتي رُخٌّ يحملُك إلى قمّة الجبلِ، وعندَما تَشعُر بالارتطامِ اُصرُخ ومَزِّق الجلْدَ واخرُج وافْعلْ ما نَأمُرك به.

امتَثلتُ لأَوامرهم وعندَما وَقعتُ فَوق الجبلِ مَزّقتُ الجلدَ ونَظرْتُ فإذَا كُلّ ما حَولِي حِجارَةٌ كَريمةٌ، فَرحتُ وقُلتُ :

- قَد حانَ وَقتُ سَعادَتي، سَتكونُ لي ثَروةٌ عَظيمةٌ وسَأشْتري كلَّ ما أَحتَاجُ إليه وأَفتَح أَكبرَ دُكّان تجاريٍّ لوالدي الفَقيرُ المسكينُ، وطَافتْ برأْسي كَثيرٌ منَ المشارِيعِ، وصَاحتْ بيَ الجماعةُ، فَأشْرفْتُ عَليهِم فَرأيْتُهم كَالأَقزَام وقَالُوا لي :

- ارمِ لنَا الحجَارةَ.

كُنتُ أَرميهم بالحجارَة الذَّهبيَّة والجذَلُ يَغمُر قَلبي، وعَبّأوا أَحمالَهُم وتَركُوني وصَرخْتُ فيهِم، فَلم يَلتفتُوا إليَّ فَعرفْتُ خِدعَتهُم وبَان لي دَجَلهُم ونفاقُهم.

بَقيتُ وَحيدًا عَلى رَأس الجبلِ وأنَا حَيرانٌ لا أَدري ما أَفعلُ وسِرتُ بَين الأَشجارِ كَئيبًا، حَزينًا ومنْ حينٍ لآخرَ أَجدُ هَيكَلا عَظميًّا لإنْسان سَبقني وقَام بِنفسِ المغَامرَة، وازْدادَتْ تَخوُّفاتي ولَعَنتُ الذَّهبَ وقُلتُ :

- الإنْسانُ عبدُ المالِ يَقتُل أَخاهُ في سَبيلِ الحصُولِ عَليه. ما قِيمةُ الذَّهب الآنَ عِندي وأنَا طائرٌ إلى الهلاكِ ؟ إنّه مِثلَ الحجر العَاديِّ لا أَنتَفعُ منهُ.

اِهتزَّت نَفسِي وبَكيْتُ وأَيقنتُ منَ الهلاك خُصوصًا وأنِّي أَرى النُّسورَ تحومُ فَوق الجبلِ، فَكأنَّها تَترقَّبُ مَوتي، واشْتدَّت أَزمَتي أَيَّامًا وأَصابَني النُّحولُ، ورَأيْتُ أنَّ التَّحسُّر والنَّدمَ والبُكاءَ لا تَنفَع شَيئا وقِيمةُ الشَّخصِ تَظهَر في تَغلُّبه عَلى الصُّعوبَات، ونجاحُه رَهنُ عَزيمتِه.

انطَلقتُ أُفتِّشُ عنْ مَنفذ للخَلاصِ وعَاودَني اليَأسُ، مَاذا سَأفْعل أأُلقِي بنفسِي منْ أَعلَى الجبلِ فَتُدقَّ عُنقِي...؟ أأَستَسلِم وبِذلِك أَموتُ مَوتَ الضُّعفَاءِ...؟ رَبَّاهُ كَيف الخلاصُ...؟ وشَعرتُ بِرغبةٍ مُلحَّة فِي الانتِحارِ ولكنِّي قُلتُ :

– إنِ انْتحرْتُ فسأُعبِّرُ عنْ ضعفِي أَمامَ مُجابهةِ المشاكلِ.

وأَخيرًا اهْتديْتُ إلى فكرةٍ : وهِي أنْ أَصنعَ حَبلاً منَ الحلْفاءِ، وطَفقتُ أَشتَغلُ، ووَضعتُ فِي طَرفه حَجرًا وأَدلَيْتُه، وكلَّ يَومٍ أزيدُ قِطعةً حتّى رَأيْتهُ يُلامس الأَرضَ، فَصنَعتُ جَزمةً وَضعْتُ فِيها نَفسِي ولفَّقتُها جَيِّدا وأَوثَقتُها بالحبْلِ وشَددْتُه إِلى شَجرةٍ قَويَّةٍ، وطَفقْتُ أَنزِل حتّى : . . .
الأَرضَ بسلامٍ.

فَرِحْتُ بالنَّجاةِ، وشَعرتُ كأَنِّي وُلدتُ منْ جَديد ودَخلتُ غَابةً أَشجارُها باسِقةٌ ومُلتفَّةٌ فَتهتُ فِيها وسَمعتُ هاتِفا يَقولُ.

- يا قَاصدًا مَدينةَ النُّحاسِ، مَنالُك صَعبٌ، مَحفوفٌ بالمكاره، تَجاوَبتْ أَصْداءُ الغَابةِ، وتَوقَّفتُ عنِ المسيرِ والْتَفَتُّ عَلِّي أَعرِفُ مَصدرَ الصَّوتِ ثمَّ انْقطَعَ عنِّي فَواصَلتُ سَيرِي، لكنَّهُ ما لبثَ أنْ هَتف ثَانيةً :

- سَوفَ لنْ تَصلَ إلى هَدفك، ارجعْ إلى بَلدك، سَتحتَرقُ قَبلَ الوُصولِ، أَنتَ مَغرُورٌ تُعرِّضُ نَفسكَ للهلاك، حَذارِ. تَوقَّفتُ عنِ المسيرِ ولَكنَّني قُلتُ :

عَليَّ أنْ أُقرِّر مَصيري وأنْ أَنبُذ هَذه الأَوهامَ الخُرافيّة فأنَا صَاحبُ العَزيمةِ الفُولاذيَّة ولنْ يَستَطيعَ أَحدٌ الحدَّ منْ إرادَتي.

وذاتَ يَومٍ رَأيتُ شَبحًا يُغطِّي وجْهَ الشَّمسِ، وإذَا به يَهوِي عَليَّ ويَلتقطني ويَرفعُني إلى السَّماءِ، ويَقولُ لي بصوتٍ مُجلجلٍ كأنَّهُ الرَّعدُ :

- منْ أَتى بك إلى هُنا ؟

ارتجَفتْ أَعضائي واصْطكَّتْ أَسناني منْ شدّة الخَوفِ ونَظرْتُ إليهِ فإذَا هُو عملاقٌ أَعوَرُ العَينِ، أَدْردُ الفَم،

مُشوَّه الخِلقة، مَجدُوع الأَنفِ، بَقيتُ مَشدُوهًا لم أَستَطعِ الإجابةَ، وضَغطَ عَليَّ حتَّ شَعرتُ أنَّ أَنفاسِي تَختَنقُ، وأَصابَنِي دُوارٌ، فَرأيْتُ النُّجومَ تَتراقَص أمَام عَينِي وغِبتُ عنِ الوُجودِ.

استَفقْتُ علَى يد نَاعمة تُلامسُ وَجهِي، وفَتحْتُ عَينِي فَرأيْتُ شَيخًا مُهيبًا، ذَا لحيةٍ بَيضاءَ مُتهدِّلةٍ، وعِصابةٍ تَلفُّ رَأسهُ، قَال :

– ما بك يا بُنيّ...؟

أَشرْتُ إليه أنْ نَاوِلْنِي الماءَ فَإنِّي لا أَستَطيعُ الكَلامَ فَقدَّم لِي قدحًا منَ اللَّبنِ، تَماسَكتُ ونَهضتُ فَقال لِي :

– ما سَببُ وُجودك هُنا...؟

قُلت : أَنَا صَبيٌّ يُحبُّ المغامَرات.

قَال : هَذه أَرضُ الجنِّ وحَرامٌ عَلى الإِنسِ دُخولَها.

تَنهَّدتُ تَنهيدَةً كَانتْ تَعبيرًا عنْ عُصارةِ آلامي.

قَال : لَولاَ جُرأَتكَ وعَزيمَتكَ أَيُّها الصَّبيُّ لَمثَّلتُ بكِ.

قَصصْتُ عَليه ما وَقعَ لي فَنكسَ رَأسهُ وطَفقَ يَنكُتُ الأَرضَ بعصًا كَانتْ بيده، وبَقيَ يُفكّر بُرهةً، ثمَّ رَفعَ رَأسهُ وصَفّرَ فَأَتتْ عَترةٌ جَرباءُ وقَالتْ :

- أمرُك مُطاعٌ يا سيِّدي.

قَال : لاَ أَرجُو منك إلاّ قَولةَ حقٍّ.

قَالت : أنَا لا أَعرِف إلاَّ الحقَّ لأنَّهُ صفةٌ حَميدةٌ.

قَال : اُنظُري إلى هذَا الصَّبيّ.

نَظرَت إليَّ مَليًّا ثمَّ قَالتْ :

- مُغامرٌ لا يُحبُّ إلاَّ المخَاطرَ.

قَال : بماذَا تَأمُرينَه ؟

قَالتْ : عَليه أنْ يَتشجَّعَ أَكثرَ وأنْ يَكونَ ذَا عَزيمة قَويَّة لا تُحطّمُها الأَهوَالُ، ولا تُثنيها العَقباتُ، ثمَّ صَفَر فَأقْبلَ كَبشٌ أَعوَر وقَال :

- الأَمرُ أَمرُك يا مَولايَ.

قَال الشَّيخُ الجنِّيّ : ما هِي أوَّلُ كَلمةٍ خُلقتْ في هذَا الوُجودِ...؟

قَال : كَلمةُ الحقِّ.

قَال الشَّيخُ الجنّيّ : كَيفَ تَرى مَصيرَ هذَا الصَّبيّ...؟

قَال : ألاَّ يُبالي بالصُّعوبَات، فَالخُنوعُ هُو الَّذي يَرضى بالدّون والهوانِ وتبًّا لكلِّ كَسول.

ثمَّ صَفّر فَأقْبلتْ حيَّةٌ تَسعى فَقالتْ :

- لكَ العزُّ يا مَولايَ.

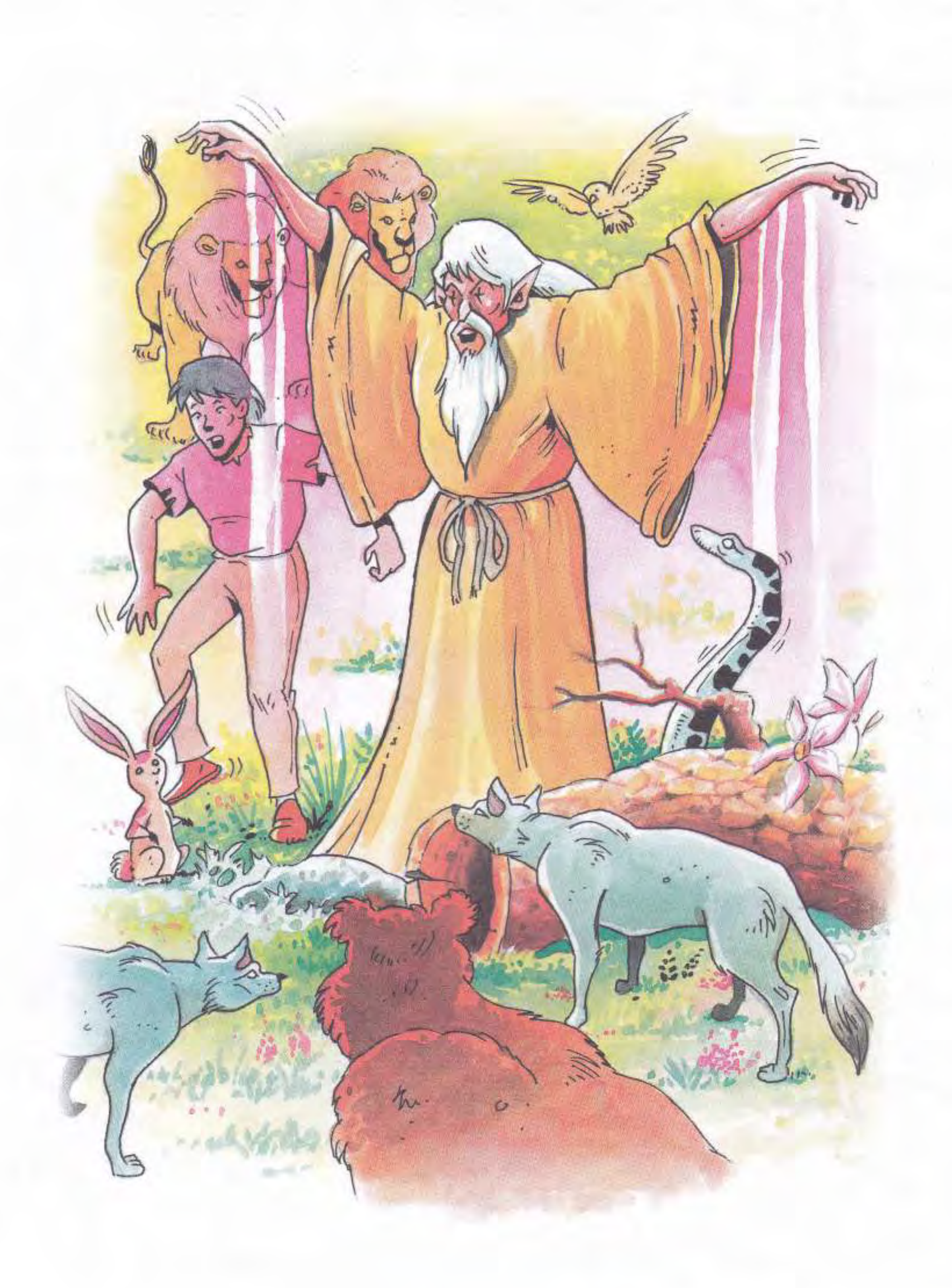
قَال : مَنْ أَحسنُ النَّاس في نَظرِك...؟

قَالتْ : الجادُّ النَّشيطُ الَّذي يَقتَحمُ المخَاطِرَ، وسِلاحُهُ الإيمانُ والعَزيمةُ، والثِّقةُ بالنَّفسِ.

قَال : مَا مآلُ هذَا الصَّبيّ...؟

قَالت : الحياةُ كَالجبلِ الشّاهقِ الَّذي امْتنعَ عَلى النَّاس بُلوغُ قِمّتهِ فلا يَصعَدهُ إلاَّ المغامرُ الَّذي يَسخَرُ منَ الأتْعابِ.

وصفَّر الشَّيخُ الجنِّيّ فَأقبَلتِ الوُحوشُ منْ كُلّ صَوب ووَقفتْ في صُفوفٍ مُتراصَّةٍ وكَأنَّها جَيشٌ نِظاميٌّ فَخاطَبهَا :



- أَيَّتُها الوُحوشُ، باسمِ الملكِ سُليْمانَ قُولي كَلمَةَ حقٍّ في شَأنِ هذَا الصَّبيّ...، فَصاحتْ بِأصْواتٍ مُختَلفةٍ، فَنظرَ إلى الشَّيخِ وقَال :

- كُلّها أَجمَعتْ عَلى أنَّ الحياةَ للعَاملِ صَاحبِ العَزيمةِ، فَسرْ يا بُنيَّ، ولا تَخفْ فَالنَّصرُ يَتقدَّمكَ، وقَال لي :

- أَينَ وِجهتُك...؟

قُلتُ : مَدينةُ النُّحاسِ.

قَال : لم يَبقَ بَينكَ وبَينَها إلاَّ مَسافةَ أُسبوعٍ.

تَهلَّل وَجهِي بِشرًا، وأَقبَلتُ عَلى الشَّيخِ أُقبِّلهُ، فَقال لي :

- المجدُ لكَ يا بُنيَّ، وبُورِكتْ أَعمالُك.

تَزوَّدتُ منهُ بنصائحَ، وأَهدَاني حصانًا وأَوْصَى الحَيواناتِ بي خَيرًا ودلَّني عَلى طَريقِ مَدينَة النُّحاسِ وشَجَّعني وقَال :

- لا تَخف فإنَّ الخوْفَ يَمنعُك منْ تَحقِيقِ غَاياتِك.

وسرتُ أُسبوعًا. وذاتَ ضُحى، رَأَيْتُ أَسوَارًا عَاليةً تَشعُّ كَأَنَّها الشَّمسُ فاهْتزَّ قَلبي وشَعرتُ بِنشوَةِ الانتِصارِ وصحتُ عَاليًا :

– الآنَ حَقّقتُ هَدفي، الموتُ لا يُهمُّني، الإنسانُ عَزيمةٌ و صَبرٌ.

اقترَبتُ منَ الأَسوَارِ وأنَا أَكادُ أَطيرُ فَرحًا ولَمستُها فإذَا النُّحاسُ حَقيقةٌ. وطَفقتُ أَسيرُ أُفتِّش عنِ الباب. ودَاخلَني اليأْسُ لأَنّني وَجدتُ نَفسي أَدورُ في حَلقة مُفرغة، وذاتَ يَومٍ، سَمعتُ صَوتًا جميلاً تُردِّدهُ امْرأةٌ وهِي تَقولُ :

– أَنتَ طفلٌ مَغرورٌ تَبحثُ عنِ المستَحيل، اُترُك مُغامَراتك وتَعالى إليَّ وسَتعيشُ حَياةً سَعيدةً، هيَّا إليَّ قَبل أنْ يَنفدَ زَادكَ، فَتموتَ جُوعًا وعَطشًا.

وتَذكَّرتُ وَصيّةَ الشَّيخِ، فَلمْ أَلتَفتْ إليهَا لأنّي عَرفتُ أَنّها تُريدُ أنْ تُثنيني عنْ عَزمي. ووَاصلْتُ سَيري والصَّوتُ يُلاحقني ثمَّ ما لَبثَ أنِ انْقطعَ عنِّي، احتَرتُ في الدُّخولِ إلى المدينة وقُلتُ :

- أَهذه مَدينةُ أَموات...؟ ألاَ يَخرُجُ أَهلُها...؟ أمَا يَدخُلهَا أحدٌ...؟ عَجيبٌ أَمرُ هَذه المدينة.

انْتابَتني خَواطِر مُزعجة وتَملَّكتْني الهواجسُ وتَأكَّد لَديَّ أنَّ الدُّخولَ إلى المدينة مُستَحيلٌ إلاَّ أنْ يُصبِح الإِنسانُ طَائرًا، وبَينَما أنَا في حَيرَتِي تلكَ إذَا بي أَسمعُ صَوتا مُزعِجا يَقولُ :

- أَزعَجْتنا أيُّها الإِنسانُ فَمَن أَنتَ...؟ وماذَا تُريدُ...؟ ولماذَا أَتيتَ إِلَى هُنا...؟

كَان الصَّوتُ يَأتيني منْ كلِّ نَاحية، فَلم أَتثبَّتْ منهُ ولم أَتبيَّن مَصدَرهُ، وارْتجَّت الأَرضُ وانْشقَّ الحائطُ النُّحاسيُّ عنْ ثُعبانٍ أَشيبَ الرَّأسِ، جَاحظَ العَينَينِ، نَحيفًا وانْتصبَ أَمامِي قَائلاً :

- مَاذَا تُريدُ...؟

ارتجفْتُ ولَكنِّي تَماسَكتُ وقُلتُ :

- أنَا.. أنَا.. أنَا..

قَال : مَن أَنتَ...؟

قُلتُ : أنَا صَبيٌّ يُحبُّ المغامَراتِ.

قَال : نحنُ لا نَقبلُ الأَجانِبَ.

قُلت : أنَا قَرأتُ عنْ مَدينةِ النُّحاسِ كَثيرًا وأُريدُ أنْ أَزُورهَا.

قَال : الدُّخولُ مُستَحيلٌ.

قُلت : أَنا تَشوَّقتُ كَثيرًا إلى المدينةِ وتَحمَّلتُ المتاعِبَ، وعِندَما وَصلتُ إلى هَدفي أُصبتُ بخيبَةٍ.

قَال : كَم مِن شَخصٍ مِثلكَ تَعبَ ولَكنَّه لم يَصلْ إلى هَدفه.

قُلتُ : أَنا لنْ أَبرَح هذَا المكانَ حتىَّ أَدخُل المدينةَ.

نَظرَ إليَّ الثُّعبانُ وقالَ :

– لنْ تَدخُلها أَبدًا.

وانْشقَّ الحائطُ النُّحاسيُّ، ودَخلَ الثُّعبانُ.

وعندَما أَردْتُ اللِّحاقَ به، انضمَّ الحائطُ إلى بَعضه، وبَقيتُ وَحيدًا أَبكِي حظِّي المنْكودَ، وأَتأَلَّمُ منَ الشَّقاءِ الَّذي

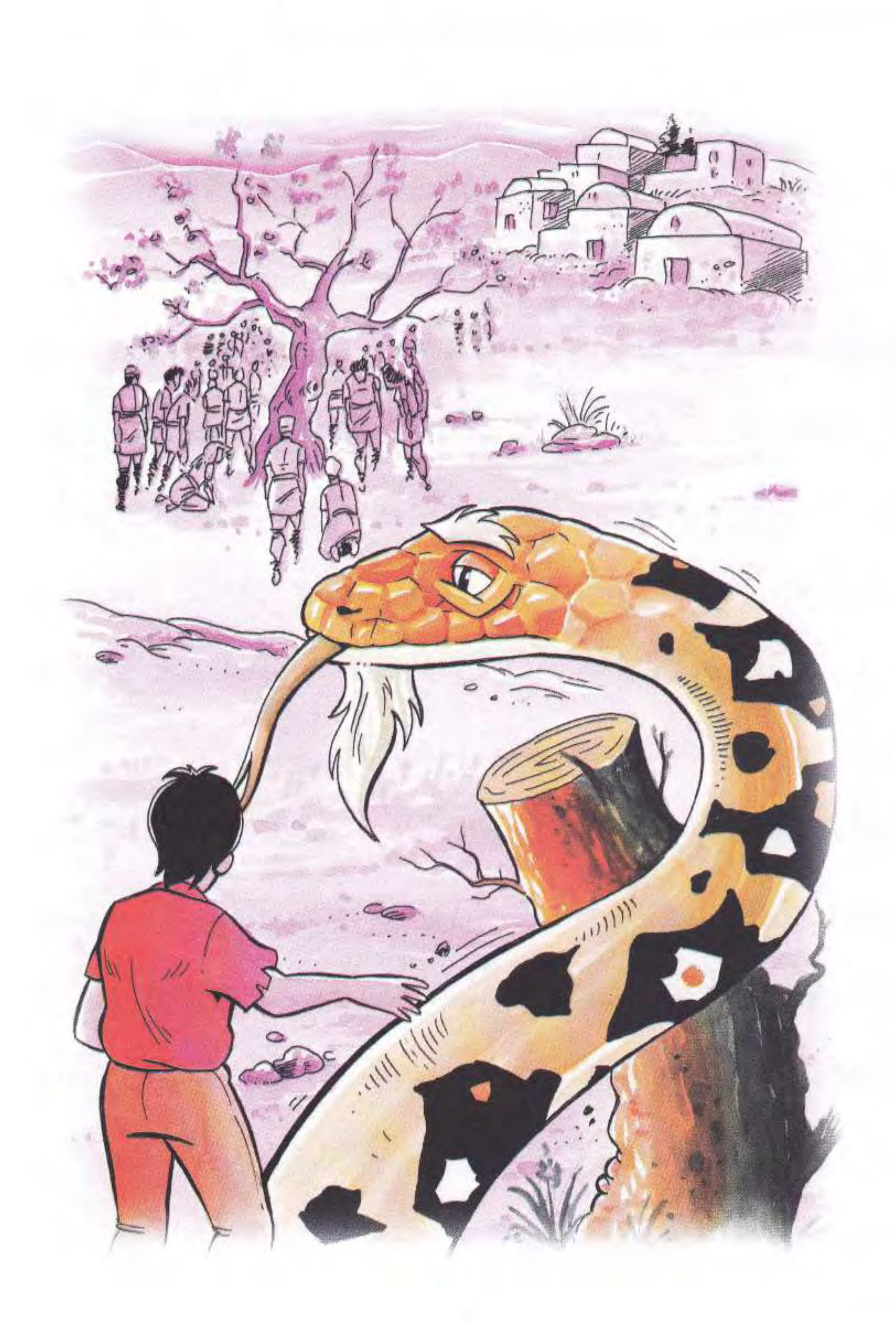
يُتابعُني في كلِّ مَكانٍ. وعِندمَا جنَّ اللَّيلُ، تَذكَّرتُ وَصيَّة الشَّيخِ، فردَّدتُ :

– باسمِ الحقِّ الَّذي يَرتَكزُ عَليه الوُجودُ، وباسمِ عَدالَة السَّماءِ، يا أَهلَ المدينة لم آت لأُنغِّص عَليكُمُ العَيشَ، وإنَّما أنَا صَديقٌ يُريدُ لَكَمُ الخيْرَ، فَلْيُفتَحِ البَابُ. وحِينمَا أَتممْتُ كَلامِي، انفَتحَ البابُ وخَرجَ الثُّعبانُ وقَال لي :

– تَفضَّل يا بُنيَّ.

دَخلتُ فإذَا الحرَكةُ مُعطَّلةٌ في المدينة، والنَّاس مُنتَشرُونَ في الشَّوارِعِ والسَّاحات وهُم أَشباهُ مَوتَى، لا يَتحرَّكونَ وتَخرُج منْ حَناجرِهم أَصوَاتٌ ضَعيفَةٌ كأَنَّما يَحتَضرُونَ، وقَادانِي إلى قَلب المدينة حَيثُ السَّاحةُ الكُبرَى، فَإذَا فيها شَجرةٌ عَجوزٌ، أَوراقُها صَفراءُ. وتَحلَّق حَولَها النَّاس، والملك يَتوسَّطهُم، وقَد عَقدَ اليَأسُ أَلسنتَهُم يَنظُرونَ إلَيَّ بعُيون حَيَرى، أَردْتُ التَّقدُّم منهُم ولَكنَّ الثُّعبانَ أَشارَ إلَيَّ أَنْ اثْبُتْ مَكانَكَ، لَزمْتُ الحذرَ وقُلتُ لهُ :

– ما شَأنُهم حَولَ الشَّجرَة...؟



قَال : إنَّهم يَبكُون صَباحَ مَساء ليسْقُوا الشَّجرةَ بدُموعِهم لأنَّ حَياتَهم في حَياة تلكَ الشَّجرة.

قُلتُ : أَتستَطيعُ أنْ تَقصَّ عليَّ خَبر هَذه المدينة...؟

قَال : خَبرُ هَذه المدينة مُحزنٌ يا بُنيَّ، فَقدْ كَانتْ قَريةً صَغيرةً لا قيمةَ لَها، وعندَما نَزلَها "بختر" وسَكَنَها، عَزمَ عَلى تَشييدها وإعلاء شَأنها، وَأرَادَ أنْ يُباهيَ بها المدُنَ الأُخرَى وخَطبَ في رَعيَّته فَاستَجابُوا لندائه، ونَفَّذوا رَغْبتهُ وجَمعُوا النُّحاسَ منْ أَنحاءِ العالَمِ ولاقُوا الأَهوَالَ ولم يُثنِهِم عنْ عَزمِهِم خَطرٌ، وقَد ماتَ الكَثيرُ منهُم، وعَقيدَتُهم هيَ الّتي كَانتْ تَدفَعُهم فَشيَّدوا مَدينَتَهم المقَدّسة، غَيرَ مُبالين بالمخاطِر والأَتعاب والشَّدائد وبَذلُوا أَرْواحَهم فداهَا، وصَنعُوا أَسْوارًا يحتمُون بها منْ هَجمات الأَعدَاءِ فَظهَرتْ في بَهرجٍ لَيسَ لَه نَظيرٌ ونَالتْ بذلكَ لَقبَ "أُعجوبَةَ الدَّهرِ" وأَقبَلَ عَليهَا السُّوّاحُ يَستَجلونَ مَحاسنهَا فَسحرَهمْ مَفاتنُها، وخَلبَت أَلبَابَهُم زينتُها فَكانَت مَضرَبَ الأَمثال، ونَصّبوا "بختر" ملِكا عَليهَا، ودَامتِ الأَفْراحُ سَنةً كَاملةً، وسَاس

بلادَهُ بالعَدلِ والإنصافِ والاسْتقامَة فَأحبَّتهُ الرَّعيَّةُ، ودَعتْ لَه بالبَقاءِ وطُولِ العُمرِ. وأَنجبَ سَبعةَ أَبنَاء، فكانتْ فَرحةُ البلادِ أَكثرَ. وربَّاهُم أَبوهُم تَربيةً حَسنَةً فَعلاَ شَأنُهُم وسَارُوا سيرةً مثاليَّة فَالْتفَّتْ حَولَهم الرَّعيَّةُ وازْدادَ تَعاوُنُهم وتَعاضُدُهم علَى حبِّ الخيْرِ والعَدلِ ونَبذِ الظُّلمِ والاعتصامِ بحبْلِ الاتِّحادِ والتَّناصُحِ، فَكانُوا أُمّة قَويَّةً شَديدَةَ البَأسِ عَلى أَعدائها، وازْدَهرتِ البلادُ في الصِّناعة والتِّجارَةِ والثَّقافَة فَأضْحتْ في بُحبوحة العَيشِ، ورَغد النَّعيمِ.

ولم تَدُم هَذه الحياةُ إذْ تَغيَّرتْ سيرةُ النَّاس فَأقْبلُوا عَلى الملاَهي والفُجورِ وتَركُوا العَملَ وعَبثُوا بالأَموَال وأَقبَل الملك عَلى عَملٍ تَشمئزُّ منه النُّفوسُ، إذْ قَتل أَبناءَهُ وتَزوَّج زَوجاتِهم فَكانتْ لَعنةُ الإلَه، فَأضْعفَ عَزائمهُم، وقَتل رُوحَ العَملِ فيهمْ وشَتّت شَملَهُم وأَكثَر التَّباغُض والتَّناحُر بَينهُم، فَأصبَحوا يَرضونَ بالمهانة والذُّلّ، ولم يَقدروا عَلى مُقاوَمة الأَعداء، فَقد اسْتولتْ ضِفدَعةٌ عَلى عَينِ الماءِ الَّتي كَانُوا يَستَسقُون منها، فَكادُوا يَموتُون عَطشًا، وخَرجوا لقتالها،

فَلم يَستَطيعُوا الوُصولَ إِليهَا، وخَارتْ قِواهُم ونَاموا في طَريقِ الكِفاحِ ولم يَتجاوَزوا سَفحَ الجبَل، فَحملَتهُم فَردًا فَردًا وأَدخَلتهُم المدينَةَ وغَلقَت عَليهِمُ الأَبوابَ، وبَقيتُ أَحرُسها فَزحَفوا نَحو السَّاحةِ، وبَدءُوا يَسقُونَ الشَّجرَةَ بِدُموعِهم لأَنَّها حَياتُهم.

أَنصَتُّ إلى القِصَّة وكُلّي اهْتمامٌ بما جَرى وقُلت للثُّعبانِ الشَّيخِ :

– أَنا أَتطوَّعُ لقِتَالِها.

قَال : إِنَّها دَاهِيةٌ، صَعبٌ أنْ تَنتصِر عَليهَا.

قُلت :أَنا لَها.

قَال : كَم منْ مُتطوِّع قَبلَك قَتلَتْهُ بِحيلِها ومَكرِها.

قُلتُ : أَنا وَهبتُ حَياتي لإِنقاذ المدينة.

قَال : إنْ أَنتَ قَرَّرتَ وعَزمتَ فَتدرَّب عَلى حُسنِ الرِّمايَةِ.

قُلت : فكرةٌ حَسنةٌ.

قَال : بُورِكتَ أَيُّها الصَّبيّ الشُّجاعُ.

بَقيتُ سَبعةَ أيَّامٍ وأنَا أُمارِسُ الرِّمايَةَ، ثمَّ أَقْبلتُ علَى الشَّيخِ الثُّعبانِ وقُلت لَه :

– الآنَ أَخرُجُ إِليهَا.

قَال : صَبرًا يا بُنيَّ، فالشَّبابُ حَماسٌ وانْدفاعٌ، ولكنْ تَنقُصهُ التَّجربةُ.

قُلت : لَقدْ تَطوَّعتُ فإمَّا الحياةُ وإمَّا الموتُ ولنْ أَتأخَّر عنِ التَّضحية.

قَال : حَذارِ يا بُنيَّ، كُن يَقظًا إنَّها ضفدعةٌ لَعوبٌ، فَقد احْتالتْ عَلى غَيرك وهُم كُثرٌ فوقَعوا في حَبائِلها وقَتَلتهُم، فكِّر مَليًّا واعْرفْ ما أَنتَ مُقدمٌ عَليه.

رَكبتُ حصانِي وتَمنطَقتُ بِحزامٍ منَ السِّهامِ، وخَرجتُ منَ المدينة فَنادَتني :

– إنَّكَ لا تَزالُ صَغيرًا يا بُنيَّ، لا تَغتَر بِكلامِ ذَلكَ الثُّعبان، فإنَّه يُريدُ أنْ يُوقِع بِك، اعتَبر بِأهْل المدينة، فَإنَّهم لَمَّا عَصوا أَمْري أَذَقتُهم مُرّ العَذابِ.

صِحتُ فِيها :

- الحرْبُ لا مَفرَّ منهَا.
قَالت : ستندَمُ يا بُنيَّ.
قُلت : لا كَلامَ إلاَّ للسِّهام أيَّتُها العَجوزُ الخَبيثَةُ.
رَميتُها بالسَّهمِ الأوَّل فَاسْتشَاطتْ غَيظًا، وشَرعَتْ تَرمِيني بِحممٍ نَاريَّة.
وتَوالى التَّراشُق بينَنا مُدّة ثَلاثة أيَّامٍ. وعند مَغيبِ الشَّمسِ، أَطْلقتْ سَهمًا مَسمُومًا أَصابَ منهَا المقتَلَ، فَصاحَت صِياحًا مُزعِجًا ارْتجَّت لَه جَميعُ النَّواحِي، ورَأيتُها تَتدحْرجُ نَحوَ السَّفحِ مُضرَّجةً بالدِّماءِ، وتَهاوَت صُخورٌ منَ الجبَلِ، وتَدفّق الماءُ فَانْتعشَتْ عُروقُ تلكَ الشَّجرةِ واخْضرَّتْ، واسْتفاقَ أَهلُ المدينةِ ورَجعَ الثُّعبانُ إلَى صُورتِهِ الإنسيَّة، وأَقبَل أَهلُ المدينة يُشبعونَني قُبلاتٍ ويَحتَضنونَني ويَبكُون منْ شدَّة الفَرحِ وقَالوا :
- كُن ملكًا عَلينَا.
قُلت : اعتَبرُوا بالماضِي وكَفِّروا عنْ سَيّئاتكُم وجَدِّدوا حَياتَكم وأَخلِصوا لأَنفُسِكم وأنَا قَد تَطوَّعتُ

بِإرادَتي و لم يُجبِرني أَحدٌ، فَأنَا لا أُريدُ جَزاءً ولا شُكورًا، ومَنْ يَفعَلُ الخَيْرَ لا يَخِبْ مَسعَاهُ.



وأَحْسَستُ بشفاه رقيقة ناعمة تُلامس خدّي ويَدٌ لَطيفةٌ تُداعبُ شَعرِي وسَمِعتُ صوتًا دافئا يُنادي :

– انْهَضْ يا... هشامُ إنّها السَّابعةُ والنِّصف، انهضْ يا بُنيَّ فَقد تَأخَّرتَ عنِ المُعتاد، لَقدْ حانَ وَقتُ المدْرسةِ... ما بِك يا بُنيَّ...؟

فَتحْتُ عَينيَّ فَإذَا أُمّي تَدعُوني، وإذَا كلُّ الَّذي رَأيْتهُ حُلمٌ.

2894 —

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة توب للطباعة
10 000 نسخة
مارس 2003

سلسلة
المطالعة
المفيدة



دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس -



الثمن : 1,300 دت

ISBN : 9973 - 24 - 301 - 3